الماركسيّة والدين

«الكفاح المناهض للدين ليس هدفًا ثوريًا» (أنغلز)

حسين صفيّ الدين*

«الدين أفيون الشعوب»:

هذه عبارةٌ أُريدَ لها أن تختصر الفكرَ الماركسيَّ كلّه، واستُخدِمتْ للهجوم على الماركسيّة واتّهامِها بالإلحاد.

فهل هذا التعميم واقعيّ؟ أمْ هو من جملة استخدامات الأنظمة البرجوازيّة، والرأسماليّة الصاعدة، منذ إطلاق البيان الشيوعيّ؟

---

* - كاتب من لبنان.

لا شكّ في أنّ ما اتُّفِق على تسميته «الماركسيّة،» أي الفلسفة الماديّة الجدليّة، قد أخذتْ منذ إطلاقها حيّزًا كبيرًا من النقاش، ولاسيّما بسبب ارتباطها بالحياة السياسيّة للمجتمعات. فتأسيسُ حزبٍ شيوعيّ كان ظاهرة في التاريخ البشريّ لأنّ الفلسفة هنا تخطّت إطارَها النظريّ لترتبط بالواقع، من موقع المؤسِّس والفاعل، فأنتجتْ مدارسَ واتجاهاتٍ في الفكر الفلسفيّ، وأحدثتِ انقلاباتٍ ثوريّة، وكانت خلفيّةً لحركات تحرّرٍ وطنيّ في شتّى أصقاع الأرض.

انطلقتْ رؤيةُ ماركس للدين من الواقع المؤسِّس له، ومن جوهره الذي هو الإنسان. فقد اعتبر ماركس أنّ الإنسان ليس جوهرًا مجرّدًا ماثلاً في مكانٍ خارج العالم، بل هو قائمٌ في الدولة والمجتمع. وهذان، الدولة والمجتمع، هما اللذان يُنتجان الدين. كما رصد ماركس دورَ الدين في الحياة عبر الفكر الدينيّ، لكونه متشاركًا في ذلك مع الإرادة الإلهيّة في خدمة مصالح طبقيّة سياسيّة.

ومن ناحية ثانية، أشار ماركس إلى دور الدين في أوقات الشدّة الخاصّة والعامّة: في مواجهة شبح الموت الذي يطارد الإنسانَ، وفي مواجهة المشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تعْصره، والاضطهادِ الذي يسْحقه. هنا يلعب الدينُ دورَ الملجأ المخفِّفِ للآلام، وبهذا المعنى شبّهه ماركس بـ «الأفيون» الذي كان له في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استخدامٌ ماديّ، أشار إليه كانط في كتابه **نقد العقل المحض** في إطار نقاشه لموضوع الألم والمحنة اللذين يواجههما الإنسانُ قبالة الموت.

إنّ الدين عند ماركس هو شكلٌ من أشكال الاحتجاج على عالمٍ بلا شفقة؛ عالمٍ رأسماليّ بلا روح. وفي كتابه **مقدّمة لنقد فلسفة الحقّ عند هيغل** يتوضّح المعنى: «إنّ الشدة الدينيّة هي، في جزءٍ منها، التعبيرُ عن الشدة الواقعيّة؛ وفي جزءٍ آخر، الاحتجاجُ على الشدّة الواقعيّة. الدين هو تحسّرُ الإنسان المضطهَد، حرارةُ عالمٍ عديم الشفقة، مثلما هو روحُ الأوضاع الاجتماعيّة التي لا مكانَ للروح فيها؛ إنّه أفيون الشعوب.» هذه العبارة تأتي، إذًا، بمثابة استخدام أدبيٍّ شائع لوصف حالةٍ تسعى إلى التوازن مع البؤس والمعاناة، تعويضًا من عالمٍ فَقَدَ دفئَهُ وحرارةَ الروح فيه: عالمٍ قاسٍ لا مكان فيه للرأفة.

كما اختلفتْ رؤيةُ ماركس إلى الدين عن آراء الهيغليين الجدد الذين اعتبروا أنّ الدين لا يمتلك وظائفَ نظريّةً أو عمليّةً، وإنما هو انعكاسٌ لقوى الطبيعة وحدها. ولقد عبّر دوهرينغ عن هذا الموقف بقوله: «يجب أن لا تكون في المجتمع الحرّ أيّةُ عبادة، وعلى النظام التشريكيّ أن يلغي جميعَ مستلزمات الشعوذة الروحيّة، وبالتالي جميعَ العناصر الجوهريّة للعبادة!» ولا يتوقّف عند هذا الحدّ، بل يُصدر مواقفَ قاسيةً ومؤلّبةً ضدّ الدين بشكل عامّ، وضدّ الكثلكة بشكل خاص. أما إنغلز فيردّ على ذلك، في كتابه **ضدّ دوهرينغ**، معتبرًا أنّ الدين انعكاسٌ خياليٌّ في أذهان الناس للقوى الخارجيّة التي تسيطر عليهم في حياتهم اليوميّة، وهو انعكاسٌ تتّخذ فيه القوى الأرضيّةُ شكلَ القوى غير الأرضيّة. ولكنْ في ظلّ العلاقات الاقتصاديّة البرجوازيّة التي بقيتْ عاجزة عن درء الأزمات، وعن حماية الرأسماليّ من الخسائر والدَّيْن والإفلاس، وعن تخليص العامل من البطالة والبؤس، بقي سائدًا المثلُ القائل: «إنّ الإنسان يظنّ، والله يقدر.» ومن هنا فإنّ المعرفة وحدها غيرُ كافيةٍ لإخضاع القوى الاجتماعيّة لسيطرة المجتمع، بل يتطلّب ذلك فعلاً اجتماعيًا يسيطر بموجبه الإنسانُ على وسائل الإنتاج، فيحرّر بذلك نفسَه من العبوديّة. وإذّاك فإنّ الإنسان هو الذي يظنّ وهو الذي يقدر.

يرى ماركس أنّ للدين مسارًا طبيعيًا تاريخيًا يتحرّك ضمن واقع موضوعيّ مرتبط بجملة العناصر المكوِّنة لحياة الإنسان. ومن هنا فإنّ نقد الدين يأتي ضمن سياق مفهوم ماركس للنقد عامّةً: «إنّ هدف النقد هو نزعُ الأغلال عن الأزهار الوهميّة التي تخنقها، وهذا حتى لا يحملَ الإنسانُ أغلالاً بلا وهم بل ليطرح الأغلال ويقطفَ الزهرة النابضة بالحياة.» وفي هذا الصدد يرى أنّ نقد الدين لا يحتلّ الأولويّة، بل الأولويّةُ هي لإزالة الألم الحقيقيّ، أيْ لنقد العالم الواقعيّ، أو نقدِ وادي الدموع الذي يشكّل الدينُ هالته. لذا يتحوّل نقدُ السماء عند ماركس إلى نقدِ الأرض، ونقدُ الدين إلى نقدِ القانون، ونقدُ اللاهوت إلى نقدِ السياسة. وهو يعتقد أنّ إلغاء الدين، بما هو سعادةٌ وهميّةٌ للشعب، يعني المطالبةَ بتخلّيه عن عالمٍ يحتاج إلى أوهام. وبالتالي يتصدّر النضالُ الطبقيّ من أجل تغيير علاقات الإنتاج جملةَ النضالات.

ويعتبر ماركس، كما يقول أنغلز في كتابة **ضدّ دوهرينغ**، أنّ الكفاح المناهض للدين ليس هدفًا ثوريًا بحدّ ذاته. ويرى أنّ الدين قيمةٌ عمليّة، بل قد يقود في بعض الأحيان إلى موقفٍ ثوريّ؛ ولكنّ الثورة تحت راية الدين «لا تحوّل العالمَ بل تغيّر مدلولَه» ـ وهذا ما ينطبق على حركة الإصلاح الدينيّ اللوثريّة. ومن ناحيةٍ ثانية يعتبر ماركس أنّ العالم الدينيّ هو حاجةٌ عمليّة للناس في مرحلةٍ ما حتى يؤمّنوا لأنفسهم السيادة على حياتهم الخاصّة، ولضبط القوى الخارجة عن سيطرة الإنسان كالشرور والخطايا. وكما انتقد الكفاحَ ضدّ الدين، فإنّه انتقد أيضًا الذين اعتقدوا أنّ الدين محضُ تضليلٍ ومجموعةٍ من التخيّلات والتداعيات.

ماركس يرفض التعميم إذنْ. فهو لا يناقش الدينَ بالمطلق، وإنّما ضمن شروطه التاريخيّة، إذ يعتبر أنّ لكلّ دين بيئةً تَشكّلَ ضمنها، وعلى نحوٍ متّصل بما سبقه من الديانات والمعتقدات: من **ملحمة جلجامش** قبل ألفيْ عام من الميلاد، إلى الديانة المنتشرة في تل العمارنة، فإلى الإله الواحد أمون عند الفرعون أوزيريس. وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى المسيحيّة، التي اعتُبرتْ في جانبٍ منها حركةً إصلاحيّةً في اليهوديّة، والوصايا هي ذاتُها تقريبًا. وفي الديانات البابليّة يعاد المسارُ ذاتُه مع بعض التعديلات.

وفي نقاش ماركس للمسألة اليهوديّة تحديدًا يقول إنّه يجب ألاّ نبحث عن سرّ اليهوديّ في دينه، بل عن سرّ الدين في اليهوديّ الواقعيّ. ويتساءل عن الأساس الدنيويّ لليهوديّة، فيجيب: «المصلحة العمليّة، والمنفعة الشخصيّة.» كما يعتبر أنّ العهد الحاضر، بتحرّره من المتاجرة والمال، وبالتالي من اليهوديّة العمليّة، إنّما يحرّر نفسَه أيضًا. «المال هو إله إسرائيل الطماع،» يقول ماركس، منتقدًا قناعة اليهود بأنّه لا ينبغي لأيّ إله آخر أن يعيش أمامه.

يتحوّل نقدُ السماء عند ماركس إلى نقدِ الأرض، ونقدُ الدين إلى نقدِ القانون، ونقدُ اللاهوت إلى نقدِ السياسة.

وكما في المسيحيّة واليهوديّة كذلك في الإسلام، إذ يرى ماركس في البيئة والشروط الاقتصاديّة والاجتماعيّة عواملَ حاسمةً في نشأته. وما كتبه عن الإسلام هو مجموعةُ أفكارٍ وتعليقاتٍ في رسائله المتبادلة مع أنغلز في **رسائل حول رأس المال**، ويبدو أنها جاءت في سياق دراسةٍ كان قد بدأها (أيْ ماركس) حول الدين الإسلاميّ. ويتّضح من آرائه هذه مراجعتُه العميقةُ لتاريخ الجزيرة العربيّة، ولواقعها الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ لناحية طبيعة الحياة القبليّة (البدويّة والحضريّة)، والديانات المنتشرة فيها، والصّراعاتِ مع الإمبرطوريتيّن الفارسيّة والروميّة وتأثيراتها في الواقع السياسيّ العربيّ في القرنين السادس والسابع الميلاديّيْن، وما لهذه التأثيرات من دور في تكوين مشاعر قوميّة بدأتْ تتشكّل عند العرب وتَدفع باتجاه التحضير لظهور نبيٍّ يأتي بدينٍ جديدٍ ليقودها والكثير من المعطيات التي ارتكز عليها ماركس نَرْصدها، بالمناسبة، عند الهمذاني في **الإكليل**، والزبيدي في **تاج العروس**، والمسعودي في **مروج الذهب**، وابن الأثير في **الكامل**. فهذا الأخير يقول مثلاً في الجزء الأول من كتابه (ص ٢٠٠) إنّه حصلتْ هجماتٌ عربيّة متفرّقة على حدود الدول العظمى وبلغ الشعورُ العربيُّ أوجَه عندما انكسر الفرسُ بعظمتهم وجبروتهم أمام حلفٍ عربيٍّ صغير لقبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل في وقعة ذي قار؛ وكذلك دحر الجيش الحبشيّ، ما دفع الوفودَ القبليّةَ إلى أن تحثّ خطاها نحو اليمن لتهنّئ معد بن يكرب أو سيف بن ذي يزن لطرده الأحباشَ ولعودة الحكم العربيّ إلى اليمن.

ويرى ماركس في الإسلام ردّةَ فعلٍ إعرابيّةً ضدّ فلاّحي الحواضر. فالحضر الذين أصبحوا ميسورين ومترفين يتراخوْن في التقيّد بالشريعة، في حين أنّ البدو الفقراء ينظرون بطمع وحسد إلى ثروات هؤلاء ومتعهم، فيتّحدون تحت قيادة النبيّ ليعاقبوا الكفّار وليردّوا الشريعةَ الطقسيّةَ والإيمانَ الحقّ إلى نصابهما وليتملّكوا كنوزَ الكفّار مكافأةً. وهذه الآليّة لا تتوقّف بل تتكرّر: فبعد مائة عام، كما يقول ماركس، سيقعون هم أنفسُهم في الوضع الذي كان فيه أولئك الكفّارُ، فتحصل تصفيةٌ جديدةٌ لا بدّ منها، ويظهر «مهديٌّ» جديدٌ، وتتجدّد اللعبة حدث ذلك منذ حروب فتح المرابطين والموحّدين الأفارقة من أسبانيا حتى مهدي الخرطوم الأخير الذي جابه الإنكليزَ بقدرٍ كبيرٍ من الظفر.

إذن، الدين عند ماركس وعيٌ يتحدّد بشروطه التاريخيّة وخصوصيّاتها الاجتماعيّة الاقتصاديّة، لا يمكن فصلُه أو نفيُه من دون تغيير الظروف المؤسِّسة لهذا الوعي. والوعي الجديد لا يتوفّر إلا بامتلاك وسائل الإنتاج وامتلاكُ وسائل الإنتاج لا ينجَزُ إلاّ بالنضال الطبقيّ (السياسيّ). ولا يَعتبر ماركس الكفاحَ ضدّ الدين من المهمّات الثوريّة. بل إنّنا، في قراءتنا لـ **البيان الشيوعيّ**، وهو الوثيقة المؤسِّسة للحزب السياسيّ للماركسيين، نكاد لا نقع على أيّة فقرةٍ عن الدين. وكلمة «كاهن» **في البيان** مستعملة بمعنى المهنة، وذلك في معرض اتّهام البرجوازيّة بأنها «نَزَعتْ عن المهن والأعمال، التي كانت تُعتبر إلى ذلك العهد محترمةً ومقدّسةً، كلَّ بهائها ورونقها وقداستها، وأدخلتِ الطبيبَ ورجلَ القانون والكاهنَ والشاعرَ والعالِمَ في عداد الشغّيلة المأجورين بخدمتها» (ص ٤٤) وفي **المسألة اليهوديّة** يعتقد ماركس «أنّ وجودَ الدين لا يتعارض في شيءٍ مع اكتمال الدولة،» وذلك على أرضيّة أنّ الدولة تتحرّر من الدين بعدم اعترافها بأيّ دين و«بتأكيدها ذاتها على نحوٍ محض، بوصفها دولةً فقط»! وهذه المقولة هي التي تعيش في ظلّها الدولةُ العلمانيّةُ المدنيّةُ في العالم اليوم.

واعتبر ماركس أنّ الإيمان الدينيّ ضرورةٌ إنسانيّةٌ في المسار التاريخيّ للتطور البشريّ، ولتطوّر الوعي الإنسانيّ. وبالتالي فإنّ هذا الإيمان سيبقى ما لم تحصلْ تغيّراتٌ جذريّةٌ على مستوى هذا الوعي، وعلى مستوى موقع الإنسان من علاقات الإنتاج القائمة من حيث امتلاكه إيّاها لإدارة شؤونه، كما امتلك الوعيَ لفهم ظواهر الطبيعة وما وراءها

❖ ❖ ❖

في هذا العرض لموقف ماركس والماركسيّة من الدين، تتّضح استحالةُ اختصار هذا الموقف بجملةٍ واحدةٍ («الدين أفيون الشعوب») من خارج السياق العامّ، جملةٍ استُخدِمتْ وتُستخدم في الصراع **السياسيّ** الحادّ الذي هدف إلى محاصرة الحركة العمّاليّة الناشطة من أجل التغيير، وإلى محاصرة الحركات الشيوعيّة في نضالاتها ضدّ الاستغلال الرأسماليّ ضمن معادلة الرأسماليّة «المؤمنة» في وجه الطبقة العاملة «الكافرة،» وتحويل الصراع الحقيقيّ إلى صراع وهميّ: الإيمان ضدّ الإلحاد، بدل الفقراء ضدّ المستغلّين، في محاولةٍ أخيرةٍ لاستخدام الدين ضدّ المؤمنين أنفسهم من قِبل الرأسماليّ الذي يقول عنه ماركس «إنه ليس لديه من إله يعبده سوى المال» (**البيان الشيوعي**). فكيف إذا ربطتم ذلك بقول المسيح: «لا تعبدوا ربّيْن، الله والمال»؟

صيدا